السنة: الثامنة المجلد: 08 العدد: 02 ص ص: 378- 393
EISSN2676-1645 ISSN 2543-375X

اللاهوت المادي والبديل الإبيستمولوجي عند محمد أبو القاسم حاج حمد.

Material theology and the alternative epistemology of Muhammad Abu al-Qasim Haj Hamad

محمد قندوز*، جامعة مولود معمري. تيزي وزو
مخبر مجتمع تربية عمل
mohammed.guendouz@ummto.dz

بوجلال نادية، جامعة مولود معمري. تيزي وزو
boudjleln@gmail.com

تاريخ الاستلام:2023/03/20 تاريخ القبول:2023/05/05

ملخص:

لقد استهلت أوروبا عصر النهضة بالعلم واكتشافاته والتقنية واختراعاتها وجعلت من الاستقراء منهجا لها فأخضعت الطبيعة لنتائج تترجم هذه المقدمات العلمية، رافضة بعد ذلك أي استدعاء للفلسفات الكلاسيكية أو المفاهيم الغيبية التي حاربتها بقوة فعمدت إلى تفكيكها والخلاص منها، فانزوى الدين وتراجع وترك الطريق مفتوح أمام العلم وفلسفاته المادية الجدلية. فأصبح كل شيء لقيصر موغلا في الكون اللامتناهي في الكبر والصغر. غير أن الأمر لم يتوقف هنا بل التحم الإنسان بالطبيعة واتحدي بها لدرجة أنها استلبته وأصبح تابعا لها عاجزا عن إيجاد نفسه بعد سده لثغرة الغيب. ثم ما لبث أن عمم هذه الرؤية على كل العالم بالاستعمار والهيمنة الحضارية فكان لزاما على بعض المفكرين خارج الدائر الأوربية أن يعيد قراءة هذا المشهد المادي المحموم.

هذا ما دفع بالمفكر محمد أبو القاسم حاج حمد منطلقا من البديل الإبيستمولوجي التوحيدي، الذي يعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان والطبيعة

*المؤلف المراسل

والغيب، لا من باب الصراع والتضاد ولكن من باب التكامل المعرفي والرؤية الإسلامية القرآنية التي لا تعمد الى إقصاء طرف على الأخر أو استلاب أحدها للإنسان سواء لاهوت الأرض أو لاهوت السماء.

الكلمات المفتاحية: اللاهوت الأرضي – اللاهوت السماوي – فوست – بروميثوس – الاستلاب المادي .

Abstract

Europe ushered during Renaissance, its discoveries, technology and its inventions, and made extrapolation a method for it. It subjected nature to results that translate these scientific premises, rejecting after that any invocation of classical philosophies or metaphysical concepts that fought with force. As a result, it proceeded to dismantle them, so religion retreated and left the way open to science and its materialistic dialectic philosophy. Everything became for Caesar Mugla in the infinite universe. But the matter did not stop here. Man adhered to nature and challenged it that it robbed him and he became a follower of it, unable to find himself after filling the gaps of the unseen. Then soon he generalized this vision to the world through colonialism and civilizational domination, so it was necessary for some thinkers outside the European circle to re-read this frantic material scene, and this is what Abu Al-Qasim Haj Hamad did. Starting from the monotheistic epistemological alternative that re-arranges the relationship between man, nature and the unseen, not out of conflict and opposition, but out of integration, knowledge and the Islamic Quranic vision that does not intend to exclude one party over the other nor alienate one of them to man.

Keywords: Earthly Theology - Heavenly Theology - Faust – Word – Prometheus - Material Appropriation

مقدمة:

ولدت الحـ ضارة الغربية الحديثة بعد انقلاب كبير على تاريخها سواء على مـ ستوى المعرفة أو المنهج. ما أدى إلى انفجار علمي وتقني كبير جدا أفـ ضى لنتائج عظيمة، غيرت مجرى التاريخ بدأ بما يتعلق بالفرد وحريته و صولا لرؤية كونية شاملة أفرزت فهما ووعيا جديدين، كان العمود الفقري فيها العلم الطبيعي مرتبـ طا بمقررات العلم التجريبي. فتمخـ ضت أور با ا لجد يدة عن اكتـ شافات علمية دـ شنها كوبونيك دفعت بالعقل الغربي أن يحلق في أفاق الكون ورحابته. فلم تعد الأرض وحدها تـ شكل مفهوم المكان الوحيد بل اتـ سعت دائرته وتعرف على لانهائية هذا الكون ومطلقتيه. بل عاد من علوه هذا ليخترق الذرة وعالمها اللامتناهي في الـ صغر. فقد مكنت له البحوث الفيزيائية من أن يسبح بكل حرية من الماكر وفيزياء إلى المايكرو فيزياء.

ضف إلى ذلك الكـ شوفات الجغرافيا والمغامرات البحرية على يد كولومبس وفا سكو دي جاما فالإبحار شرقا وجنوبا، وفي كل الاتجاهات و سعت دائرة التعرف على مختلف الحـ ضارات والثقافات والأجناس والأعراق، فانفتح العقل الغربي حـ ضاريا وإنـ سانيا بعدما انفتح علميا وتقنيا. كما كان للا ستقراء دورا وا ضحا في التعامل مع النظريات العلمية واكتـ شافاتها، كـ سمة أـ صطبغ بها العـ صر الحديث. ما عمق النزعة التجريبية أكثر فكانت النتيجة تفكيك كل المـ سلمات الـ سابقة التي كانت تفـ سر الكون وتنظر للإنـ سان وعلاقاته الأخلاقية والنفـ سية والاجتماعية، وتقزمت الرؤية اللاهوتية الكنـ سية التي عجزت عن مـ سايرة هذا الفهم الجديد، ولم يعد أمامها إلا الانـ سحاب والانزواء وانهارت مقولة "ما للّه للّه وما لقيصر لقيصر"، وأصبح كل شيء ملك لقيصر وحده. فأـ صبحت المعرفة هنا قوة في قالب تكنولوجي تخـ ضع الظواهر وتدفع للتمو ضع في قالب تجريبي، كنتيجة منطقية وثابتة لمقدمات هذا المنهج نفـ سه. فأـ صبح العالم كله معقولا من خلال المعادلات العلمية والريا ضية والفيزيائية. فتتكرت للما ورائيات. وأقامت معهم قطيعة لا هوادة فيها مـ صرة كل الإ صرار على تفسير الواقع والإنسان. وهنا مكن الخطورة ومنطلق التساؤل والاستفهام

للمفكر الـ سوداني محمد أبو القا سم حاج حمد كدارس وناقد لهذا الفكر الغربي الحديث، الذي تخطى حدود القارة الأوربية القومية وأ صبح يقدم ذاته كخطاب عالمي يلقي بـ ضلاله على كل العالم بمنطق الهيمنة الحـ ضارية والمركزية الأوروبية: فكيف انقلب الأمر على الإنـ سان الغربي الذي حاول أن يتحرر من لاهوت الـ سماء فوقع ضحية لبراثن اللاهوت الأر ضي ومنطقه المادي الجدلي ؟. وما هي التبعات والنتائج التي آل إليها هذا الاستلاب المادي ؟. وما هي الرؤية أو البديل الابـ ستمولوجي الذي يؤ سس للخروج من هذا المأزق المادي ؟.

أولا: الفلسفة الغربية الحديثة والتأسيس للاستلاب المادي:

عرف الغرب الأوربي في العـ صر الحديث تطورات هائلة، وتـ صورات جديدة حملها انفجار علمي وتكنولوجي، انجر عنه تولد رؤى ومفاهيم تـ شكل لوعي إنـ ساني بمفهوم مادي، بل وأكبر من هذا حين تخطته لتعطي تفـ سرا ورؤية كونية شاملة يعد الإنسان فيها مفردة ضمن منظومة مادية، يحكمها تفـ سير علمي وبقوة "فلابد من الاعتراف بأن العلم الحديث لم يكن مجرد بوابة كبرى انفتحت، لتنطلق منها ظاهرة العلم انطلاقة عظمى، ويتـ سارع تقدمها بمعدلات لا عهد للبشر بها من قبل، من زاوية العقل ومن زاوية الواقع على السواء، مستوى جديد ومغاير من مستويات وجود الإنسان" (كلشني، 2003، صفحة 30.29).

هنا أفرغت رئة العالم الغربي الحديث من هواء الميتافيزيقا ومن اللاهوت ومن الفلـ سفات الكلا سيكية، وبدأت تمتلئ بالنظريات العلمية التي حولت لمـ صباح قوي يكـ شف من خلاله على وجوده الأنطولوجي والقيمي الحـ ضاري داخل هذا الكون الفسيح. "بتطور العلم ....بدأ الإنسان يستشعر حرية أكبر في تعامله مع الكون وسيطرته التدريجية على موضوعاته ومجهولاته وبدأت تتقلص تدريجيا في وعي الإنـ سان تلك التطلعات إلى القوى ما فوق الطبيعة التي تتحكم بالقدر والتـ صريف في كل شيء. لم تعد مـ سؤولة عن الكوارث والزلازل والأعا صير والجفاف والحروب والزرع والـ ضرع. أ صبح الإنـ سان يـ شعر تدريجيا أنه سيد مصيره ومالك قدره" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 193). شعر الإنسان أن لا سيد في هذا العالم إلا نفسه، ولا سلطان إلا سلطان العلم ولا ميدان إلا الطبيعة.

فـ شرع ينفذ في مداخلها ومخارجها بالعلم والتقنية وراح يـ سخرها ويختبرها فتوسع سلطانه عليها بل تعداها لبني جنسه، فاستضعفهم واستعبدهم ثم فرغ للتاريخ فحقبه وأطره ضمن رؤيته المادية "لا يرتكز تصور التقدم تصورا وضعيا إلا على التطور العلمي والتقني، الذي يقيس قدرة الإنسان على الطبيعة وعلى أخيه الإنسان، ومن المهم أن تكون عـ صور البشرية قد أخذت أسمها من التقنيات المستعملة : عصر الحجر المنحوت، الحجر المصقول...عصر الحديد..الى عصر الآلة البخارية وعصر الطاقة النووية" (غارودي، 1993، صفحة 9).

هذا ما يسمى بالثورة العلمية أو عصر العلم الذي ولدت ضمنه أوروبا الحديثة، وولد معها تـ صور جديد للكون برمته دشنه كوبونيك مرورا بنيوتن وصولا للماركسية، التي تعتبر النتاج المعاصر للتطور العلمي الأوروبي لتستدمج الإنسان بالكون. "بذلك قادت الماركسية التطور الأوربي إلى بناء نظري متكامل للاهوت الأرض، نافية بحدة لاهوت السماء، ومقاتلة ومستقتلة ضد كل آثار الغيبي في الحركة وفي الوجود. وفي هذا الإطار لم تعد الماركسية-كما يفهمها البعض في الشرق- صراعا يعزز العقل العلمي في مواجهة العقل الطبيعي وقوة نافية لموروثات العقل الإحيائي بل صارت تأطيرا جديدا للعقل العلمي نفسه ضمن كفاح متصل في كل ميادين العلوم لتأكيد لاهوت الأرض" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 199)".

ولد لاهوت الأرض واتحد الإنسان بالطبيعة، وأوغل العلم التجريبي فيها لمداه الأقصى واحتكم لنتائجه واطمأن لمساره ومنطلقاته، وعنون عصره باليقين بل ذهبت الماركسية لأقصى مداها، حين استدمجت جميع متاحات العقل المادي الأوروبي من الاشتراكية الفرنسية والاقتصاد الإنجليزي إلى الداروينية وصولا إلى الوضعية المنطقية، فاشتد عود العلوم وعلا سلطانها " لذا فقد هيمنت فكرة تدعو إلى إقصاء كل قضايا اللاهوت عن دائرة العلم، وراحت العلوم التجريبية تصنع معيارا لكل شيئ...تأسيس نظام أخلاقي وقوانين اجتماعية ودستورا سياسيا وأي شيء أخر" (كلشني، 2003، صفحة 35).

صنع الإنسان عالمه المادي عالم بعنوان الطبيعة. اتحد بها و سيطر عليها وراح يستمد لنفسه القوة بإخضاعها، ولم يكتف بذلك ؛ بل راق له أن ينظم بعده القيمي وأساليبه الحضارية وعلاقاته الاجتماعية، مصبوغة كلها بهذه النظرة المادية أو الطبيعية "إن تطور الوعي البشري كفيل-بالضرورة-بإقصاء الدين من صناعة الفاهمة البشرية التي تفسر الكون، لتحل محله الفلسفة والعلوم الإنسانية المشبعة بالروح الطبيعانية، ولتصبح كل المعرفة الإنسانية في نهاية المطاف نتاجا للعلم، ولتوصم كل الأفكار الواقعة خارج هذا المجال بأنها مجرد خيال أوخرافة" (العامري، 2021، صفحة 35).

هنا، قمة الطغيان الإنساني وقمة الاستعلاء وذروة السيطرة. فلغة القوانين وتحليلات الأرقام أحكمت قبضتها وبسطت سيطرتها وتربع الإنسان إلاها في الأرض وحول كل شيء إلى كم ومقدار وسلعة، لقد دمج كل قيمه المعرفية والعقلية والاقتصادية في مادية شاملة، فأصبح موجودا في الأرض لأجل "زيادة معرفة قوانين الحركة والطبيعة البشرية والهيمنة عليها من خلال التقدم المستمر الذي لا ينتهي، ومن خلال تراكم المعرفة و سد الثغرات وقمع الأخر إلى أن يخضع كل شيئ الإنسان والطبيعة لحكم العقل وقانون الأرقام، وهو قانون يستمد مشروعيته من المعارف العلمية المادية، بحيث تحول الواقع بأسره طبيعة وبشرا إلى جزء متكامل عضوي تنتظمه شبكة المصالح الاقتصادية والعلاقات المادية" (المسيري، 2003، صفحة 105).

إن ما نصل إليه من خلال ما قدمناه أن الإنسان طغى فاستغنى. طغى حين التحم بالطبيعة وأصبحت علاقته بها علاقة الجزء بالكل فاستغنى عن القوة العلوية واستبعد جميع الممكنات التي تنتهي إليها، وألغى الغاية التي وجد من أجلها. فانصرف بالقراءة الموضوعية العلمية وأسس على ضوئها فلسفة الصراع والطغيان.

□

ثانيا: نتائج الطغيان المادي وانعكاساته على الإنسان الغربي

لقد أحكمت النظرية المادية قبضتها على الفكر الأوروبي وبدأت تتشكل معالمه داخليا وخارجيا، فامتازت قوانينه بالصرامة الجبرية مستبدة بكل المعطيات المتاحة لها، وقد قوت الاكتشافات العلمية أدائها وارتقت كما ذكرنا سالفا غلى مقام أن تمنح تفسيرا ورؤية كونية مادية شاملة "لم يستطع الغرب أن يفتح ثغرة في علاقة الفكر بالكائن التي يعدها أنجلز القضية الفلسفية الأساسية، الثغرة ممكنة فقط باللجوء إلى الفهم الغيبي لحركة الواقع، غير أن وحدة الكائن بالطبيعة و ضمن موروث الغرب العلمي، وبتوظيف رأسمالي كامل لهذا المفهوم، يمنع من إيجاد هذه الثغرة الغيبية، إن الغرب الأوربي ساهم تاريخيا في صياغة نظرية لاهوت الأرض ..لكنه لا يستطيع أن يتخلى في الوقت نفسه عن الموروث العلمي " (حاج حمد ا.، 1996، صفحة 196.197).

إنها أول ثمار الطغيان والاستغناء لقد وقع الفكر الأوروبي هو نفسه ضمن استلاب المادية الطبيعية ونكران البعد الغيبي ورفض أن يكون هناك خالق لهذا الكون وغاية وراء خلقه، هذه تحديدا هي الثغرة التي عملت الماركسية المادية على إخفائها وإنكارها، كونها تقف بعجز على ردمها لأن النتاج المادي المترتب عنها لم يترتب في بداياته أو نهاياته، لأن يصل إليها أو يمر من خلالها لأنها". تسعى إلى البرهنة على أن العلم والتقدم العلمي والتقني إنما يظهر فحسب لتحرير الإنسان من القوى الأساسية للطبيعة. بينما يسبب استلابه عن ذاته ويجعله خاضعا لاختراعاته هو. فكل ما ابتكرته عبقرية الإنسان من منجزات حضارية وقيم روحية ينصب أمامه كشيء غريب ومعاد فيفقد الإنسان الثقة بنفسه وبقدراته وبمعقولية وجوده في هذه الحياة"

(عباس، غير متوفرة، صفحة 7).

فالثغرة الغيبة الآن هي ورطة المادية ومصدر القلق وما أمتن كلام المفكر حاج حمد حين يقول واصفا إياها: "هكذا يكتمل تدريجا لاهوت الأرض بشقيه الرأسمالي والاشتراكي، ويرد الاعتبار لبروميثوس بوصفه أو شهيد في التقويم

الفلسفي، إنه طالما صارع الغيب والآلهة من قبل، وكم فضل أن يسمر على صخرة على أن يكون خادما للرب.. واستوى إلى جانبه فاوست، الرمز الذي اختاره قوته للحضارة الأوربية الجديدة، للتعبير عن إرادة التغيير المتجددة، والسيطرة النازية المحمومة على قوى الطبيعة، وامتطاء صهوتها في وجه الأعاصير، امتلاك أسرار المعرفة، ولا غضاضة إن باع نفسه للشيطان" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 201).

لقد أصبح الإنسان الأوروبي عدوا لقيم السماء بل ساخطا عليها والأصح أنه يجهلها ولا يريد أن يعرفها، إذ سان مفكك مبعثر ومشتت فلسفة الصراع المتولد لديه جعلته يدخل في حروب رهيبة تقضي على كل شيء، بل ويقضي على الحياة ذاتها. والنتيجة العامة شقاء وصدام "إن العلم إذا لم ينضم إلى القانون الصالح، لا يمكن أن يضمن زوال الاعتداء بين البشر بأي شكل من الأشكال. ومن الواضح أن التطور العلمي لا يعني تطور الجانب الإنساني من الإنسان، بل يمكن أن ينسجم أعلى أشكال الإنتاج العلمي مع أقسى أشكال الأنانية والعدوان" (الصدر، 2002، صفحة 17). ولعل أول ما نقف عند هذا الطغيان المادي: البعد الأخلاقي والبعد الحضاري كنموذجين لهذا الاستلاب بالمنطق المادي.

البعد الأخلاقي: إن قضية الأخلاق في الفكر المادي وفي أوضح صورها تختصر الإنسان ضمن محدودية الغرائز التلقائية أوالشروط الاجتماعية. بمعنى أن الأخلاق تم إخضاعها لجدل الطبيعة بمنطق الجبريات الحتمية أو النسبية الاحتمالية، فشوهوا أخلاق الإنسان إلى أبشع ما يكون إذ عمدوا إلى بنائها بناء السلب، وإلى تشريعات تحمي الإنسان من أخيه منطلقين من فكرة الصراع والتضاد والإلغاء. "فككت أوروبا كثيرا من المسلمات التي انبنى عليها التصور الكوني القديم، سواء لاهوتيا أو ميتافيزيقيا، ثم تقدمت الوضعية خطوات باتجاه التجريبية والتحليل العلمي، فخضع الإنسان نفسه لتفكيك وطرح أخلاقياته التقليدية ضمن محك التساؤلات، في محاولة لتكوين أخلاق وضعية بديلة في سياق انتقادي وعقلاني"(حاج حمد م.، 1996، صفحة 305). فكك الإنسان فتفككت تلك الأخلاق التي انبنت على المعتقد الديني وحل

محلها أخلاق و ضعية بجذور لاهوت الأرض فأبيحت العلاقات الجن سية، وأبيح تعددها واتخذت انحرافات وأشكال خطيرة جدا.

انهارت فل سفة الأخلاق المطلقة الثابتة لتحل محلها أخلاق التعدد والن سبية أخلاق فردية تائهة في إطار الرؤية الوا حدة، فالكذب ليس بال ضرورة قبح والظلم قد يبرر بالدفاع عن النفس، والملكية خاضعة للفروق الفردية.

ففرد يملك وأمة مستعبدة والدولة تصبح سلطة واجبها أن تحمي حيوانية هذا الفرد لإ شباع احتياجاته "في اللحظة التي انتزعت مر ساة الـ سماء أ صبح من الـ ضروري إيجاد أ سباب لوجودها وتطورها على ضوء الحاجات المتبدلة للب شر. وأخيرا قدمت المادية التاريخية أ صح تف سير علمي لأ صول وفحوى الـ شرائع الخلقية، ولدورها الاجتماعي وحدودها" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 307).

البعد الحـ ضاري: لقد أف ضت الاكت شافات العلمية إلى تحويل العالم لـ ساحة صراع كبيرة كنتيجة منطقية لمنطق الفل سفات التي انطلق بها ومنها الإن سان منذ البداية التي كان مرتكز ها وأ صل البناء فيها لاهوت الأرض، فأوجدت اتحاد كامل بين الإنسان والطبيعة على حساب الرؤية الكونية الواسعة الشاملة فعكست الفلسفات الأوروبية خا صة المادية الجدلية وعي الإنسان الأوروبي في تركيبه الاجتماعي والتاريخي فانتهت إلى عقيدة الـ صراع والت ضاد بهدف الاستعلاء "أصبح الصراع هو محور النشاط الحيوي للإنسان الأوروبي، والوحدة هي تنظيم لفعاليات الصراع في شكل مؤسسي يقوم على علاقات القهر الإداري بأكثر مما هي و حدة التفا عل...ويتجلى و يحل هذا الروح في كل البناءات الاقت صادية والـ سيا سية والفل سفية والتاريخية ... صراع الإن سان ضد الطبيعة.. صراع الإنسان ضد الإنسان. وتتبلور عقيدة الصراع واتجاهاته في كل المذاهب ...أو لي ست هذه فطرة الإن سان وطبيعته؟" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 335).

وحين يكون الـ صراع فل سفة ورؤية تكون كل الأ ساليب م شروعة ومباحة فالقتل الجماعي والحروب العالمية والاحتكار لمواد الأكل والبناء والمؤامرات

والد سائس والتنكر للعهود ونقض الاتفاقيات مظهرا له، فتج سدت على أرض الواقع متبلورة في اتجاه غريزي عدواني طغياني فأ شعلوا نارا أحرقوا الجميع واحترقوا بها جميعا.

إن الإذ سان الأوروبي في عنوان الحـ ضارة الحديثة هو إذ سان ذكي ومخترع بنفسية استعمارية وهمجية تلغي الجميع لصالح شهوته المادية وفردانيته المتعالية" قد قاد فاو ست الحـ ضارة الأوربية ببدائلها المختلفة، فدك الملايين في فيتنام وكمبوديا ولاوس. ومن قبل ا ستأ صل الأعراق القديمة في أمريكا..وغذى أسماك القرش في المحيط الأطلسي بملايين الأطنان من اللحوم السوداء...و صعد تجار الأ سلحة والدمار الى قمة هرمه الاقتصادي والسياسي، وتلاعب بأ سعار المواد الخام ..وزاد على ذلك التحرش بهذه الشعوب نفسها ثم صدر إليها المرتزقة. أما هناك فقد امتلأت الـ شوارع ببقايا مخابيل فيتنام تفتر سهم صراعات الماريجوانا والهيروين" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 337).

هنا تتربع الرأسمالية في ثوب الليبرالية المتوحشة على البعد الحضاري الأوروبي متـ شحة بعنوان طبقة واحدة مالكة قاهرة ، تعبر عن فلـ سفة الـ صراع وروحها المتقدة بنار الحرب والعدوان علاقتها مع نفسها علاقة تنابذ وصراع وعلاقتها مع الأخر علاقة استغلال واستعمار.

ثالثا: الرؤية الإبستمولوجية التوحيدية وتجاوز الاستلاب المادي:

إن حاج حمد إذ يتصدى لهذا الفكر المادي الذي يستلب الإنسان بجعله تابعا ومنقادا لمنطقه الطبيعاني. ينطلق من القرآن كمرجعية معرفية من خلال توليده لمنهج معرفي متكامل من ثقافة ورؤية النصوص القرآنية من خلال معالجته للاستلاب المادي للإنسان، فهو يستحضر مقومان أساسيان وهما :

أ-القرآن الكريم كمرجع كوني مطلق متعالي يسترجع الأنساق الحضارية والفكرية والديانات السابقة فيصحح المحرف منها بخطاب عالمي موجه لكافة الناس ودون تمييز أو تفضيل إلا ما اصطفى الله لذاته المتعالية .»والقران مطلق لأنه محيط باللامتناهيات الكونية والإنسانية وبسرمديتها بحيث أنه الكتاب الوحيد الذي يعزز هذه الإطلاقية ويمنع استلابها لاهوتيا أو وضعيا متى فهم الكيفية المنهجية والمعرفية" (حاج حمد م.، 1996، صفحة 503).

ب- قيمة الإنسان ككائن حر حرية مطلقة بوجه كافة الاستلابات خاصة المادية منها " قد خلق الله الإنسان لا ليقهره بالعجز، ولكن ليرتقي به لمراكز القوة والقدرة والعلم وكل ما تعطيه حيوية الإبداع ليكمل مسيرة الوجود. عبر معاودته الاندماج في الحركة الكونية ضمن منهجيتها الإلهية (حاج حمد م.، 1996، صفحة 30).

الإنسان خليفة الله الذي اصطفاه واستخلفه وحمله الأمانة وزوده بالقدرة على العلم والمعرفة وخص حركته بالحرية والاختيار. وهذا الأمر في تقدير حاج حمد لا يتحقق إلا من خلال منهج معرفي قرآني جدلي يستوعب :القرآن والإنسان والكون من خلال : أسلمة المعرفة وجدل الغيب والإنسان وفوقهما الطبيعة والجمع بين القراءتين، فماذا يعني بكل هذا ؟.

قبل أن نصل إلى ضبط هذه المفاهيم الفلسفية التي تؤسس لمنهج أبي القاسم حاج حمد. علينا أن نقف على بعض النقاط هي:

أن السقف الحضاري العلمي العالمي وجراء اعتماده على منهج التحليل، التفكيك انتهى به الأمر إلى ظهور عقلين اثنين هما:

العقل الاستدلالي: الذي يعتمد على العقل وتأملاته

العقل الاستقرائي: الذي يعتمد على التجربة المباشرة

إن مآلاتهما و مخرجاتهما المعرفية تمثلت في :

الاستدلال العقلي أفضى إلى نهايات لاهوتية خرافية وأن الاستقراء أفضى إلى تفكيك مطلق عجز فيها عن إعادة التركيب. هنا يبدأ المنطلق لحاج حمد وذلك بتأسيس للمنهج الجديد يتجاوز فيه كل من الوضعية واللاهوتية معا.

لكن السؤال كيف يتم ذلك ؟ وما طبيعة هدا العقل الذي ينشده حاج حمد ؟.

إن العقل الذي يؤسس له حاج حمد عقل كوني يقود لنظريته حول الوجود بمنطق التركيب العلمي، مستوعبا من خلاله ما يطرحه العقلين الاستدلالي والاستقرائي حول هذا الكون اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر

ما ينتج عن هذا التركيب بعد ثالث " ميتافيزيقي" بإمكانه الإحاطة بالإنسان والطبيعة ويتداخل معهما.

غير أن حاج حمد لا يترك هذا البعد الميتافيزيقي مجهول المصدر أو مفتوح للتأويلات الفلسفية، بل يقر أن صدوره من مصدر كوني مطلق مثله مثل هذا الوجود عن الله سبحانه وتعالى وما دام الله هو مصدر هذا البعد الميتافيزيقي "الغيب " فإن القرآن الكريم ككتاب وحي متعالي ومطلق معادل للوجود الكوني ومنطلق الدراسة والبحث عندنا.

فالقرآن ركن أساسي يتولد منه المنهج المعرفي الكوني بالتركيب مع العقلين الاستدلالي والاستقرائي بعد أن استوعبهما بكيفية موضوعية وعلمية بعيدا عن النهايات المادية والوجودية العبثية، وبعيدا كذلك عن النهايات اللاهوتية.

وهنا نصل إلى أسلمة المعرفة كإطار ناظم لهذا التركيب الثلاثي"فقضية إسلامية المعرفة هي بحث العلاقات الجدلية التي تربط بين الغيب الإلهي والإنسان الطبيعة وهي علاقة تداخل و ليست علاقة تضاد و لكنها أيضا ليست علاقة حلول (حاج حمد م.، 2004، صفحة 379).

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه: في أي إطار أو قالب شكل القرآن هذه العلاقة إذا عرفنا أنها تمثل لفعل إلهي متعالي؟.

أولا: الفعل الإلهي في عالم المطلق منزه فوق الزمكانية يماثل في أمره المتعالي قول الله تعالى (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتيك بِهِ قَبْلَ أَنْ يرتد إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل 40.

ثانيا: الفعل الإلهي في عالم الإرادة، وهو مقدس يأخذ في إرادته مشاركة الإنسان ضمن قدراته ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف 160 .

ثالثا: الفعل الإلهي في عالم المشيئة الموضوعي، وهو مبارك حيث نجد جدل الإنسان وجدل الطبيعة وجدل مناهج الاستقراء والاستدلال "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون"" يس40".

هذه العلاقة تجعلنا نقرأ بوضوح علاقة الكون المطلقة بالإنسان من حيث الصيرورة والحضور الإلهي في الكون وحركته " ولكن بمعزل عن مفهوم الجبرية

اللاهوتية التي تستلب جدل الإنسان و جدل الطبيعة و بمعزل عن الوضعية التي تستلب جدل الغيب و لهذا طرحنا الجدلية الثلاثية كإطار فلسفي لإسلامية المعرفة وهي جدلية الغيب و الإنسان و الطبيعة (حاج حمد م.، 2004، صفحة 381).

وحتى نفهم الترابط بين هذه الجدليات (جدل الغيب، جدل الإنسان، جدل الطبيعة) يجب أن نقف على ما يسميه حاج حمد الجمع بين القراءتين فما المقصود بها ؟. " ليس من العبث أن تكون أول السور إلى غار حراء -كهف الإسلام □ حاوية للمنهج ففيها كان الأمر الإلهي بقراءتين مختلفتين تماما : القراءة بالله خالقا و هذه قراءة غيبية ... ثم قراءة ثانية و هي قراءة علمية صارمة في الكون (حاج حمد ا.، 2004، صفحة 314).

لقد وضحت سورة العلق الجمع بين القراءتين في قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذي خلق❖ خلق الإنسان من علق ❖ اقرأ وربك الأكرم ❖الذي علم بالقلم❖ علم الإنسان ما لم يعلم" العلق 5.1". فالقراءة الأولى قراءة غيبية بالله سبحانه وتعالى مقيدة بنصوص الوحي تستوجب منا الفهم الدقيق معرفيا ومنهجيا لبنائية القرآن الكريم من حيث اللغة، فمفردات القرآن الكريم ذات دلالة اصطلاحية متميزة جدا، لا تحتمل الترادف فاستخدامها استخدام إلهي متعالي تختلف عن استخدام لغة العرب البشرية.

كما أنها قراءة مرتبطة بالقرآن الكريم ككل أي في وحدته العضوية بعيدا عن تجزئته، دون نسخ ومنسوخ في آياته وكاختصار لها فهي قراءة كونية مهيمنة تتعالى نحو المطلق. أما القراءة الثانية فهي قراءة بالقلم الموضوعي تستمد طاقتها من مناهج الاستدلال والاستقراء التي تعتمد على التفكيك والتحليل كما أنها قراءة مركبة على كل من العقل والتجربة ترفض التأمل الذاتي المفتوح بلا منطق يضبطها. كسؤال، ما قيمة الجمع بين القراءتين في منهج حاج حمد ؟.

تكمن قيمة القراءة الأولى في أنها ترفع الإنسان إلى الكونية عن طريق الوحي فتجعله يرتبط بالله سبحانه وتعالى، ما يمنح عقليته تشكل يتماهى وهذا الارتباط الإلهي فتكون النتيجة كالأتي:

تعالي الإنسان عن نزعته الدنيوية فيرتفع بمنظومة القيم الإلهية التي تختلف تماما عن منظومة القيم الأرضية، فلا سفك للدم ولا فساد ولا هلاك للحرث أو النسل تحت أي مسمى أو مبرر مهما كان .

كما تلغي تمركزها حول الذات الفردية بأدوات نفعية براغماتية تؤول إلى إقصاء الآخرين وإلغاء وجودهم بمنطق الصراع الحضاري والصدام الأيديولوجي الذي تشرعه العولمة. فتتحرر المعرفة الدينية من استلاب اللاهوت ومخارج الخرافة والأساطير.

أما قيمة القراءة الثانية حين نجمعها مع القراءة الأولى، فهي تفضي بنا إلى تحريرها من الوضعية بكل أشكالها المادية والمثالية والوجودية فتسترد العقل واستدلالاته والعلم واستقراءاته، ما يدفعنا إلى تجاوز المشكلات الزائفة في القضايا الإنسانية.

وكخلاصة فالقيمة المعرفية والمنهجية للجمع بين القراءتين ضمن مساقات أسلمة المعرفة نقول أنها تعيد بناء وصياغة العلوم على نحو كوني تتكامل فيها كل العلوم الطبيعة والإنسانية وتفرعاتهما، من تاريخ وسياسة واجتماع وأنواع الحاكمية وتناسخ الشرائع « وغير ذلك كثير مما يؤسس لحقل معرفي كامل في إطار جدلية الغيب والإنسان والطبيعة وباختصار فحيث فكر الإنسان وأبدع تتولى إسلامية المعرفة إعادة الصياغة باتجاه كوني (حاج حمد م.، 2004، صفحة 86).

□

خاتمة: من خلال ورقة البحث هذه نصل إلي نتائج تتمثل في:

❖ انهيار الرؤية الدينية المليئة بالطمأنينة والثقة واستبدالها بانقلاب علمي وثقافي شامل وبتحول صناعي جدلي مادي يرفض التعامل مع أي لاهوت سماوي أو بشري .

❖ بروز فلسفة الصراع على سطح المفاهيم الغربية الحديثة واستعمالها في مختلف الميادين كالصراع الطبقي السوسيولوجي والاقتصادي والسياسي والتاريخي وفلسفة القوة في الأخلاق والصراع حتى بين مستويات الجهاز النفسي. وانتقال هذا الصراع إلى الأخر من أوروبا نفسها ومن الحضارات والأجناس الأخرى، ففكر الإقصاء والإلغاء والعداء نحو الآخر من نتائج فلسفة الصراع.

❖ هذا المأزق الجدلي المادي الذي تورط فيه الفكر الغربي إنتاجا واستهلاكا انتشر عبر كل العالم، وانخرطت فيه كل الشعوب دون إرادة منها فلم تعد هنا القضية قضية أوروبية محضة، بل تحولت إلى قضية عالمية تحت مظلة الاستعمار وبداعي الليبرالية والنظام العالمي كحقوق الإنسان وفلسفة التكتلات والمبادلات التجارية.

❖ إن الإبستمولوجية التوحيدية التي يقول بها حاج حمد لا تمنع علاقة الإنسان بالطبيعة، لكنها يؤسسها على رفض أن يستلب الإنسان قدرة واختيارا لصالح المادة. كما أنها لا ترفض لاهوت السماء لكنها ترفض أن يستلب الإنسان لسلطة علوية غيبية تفعل ما تشاء دون مبرر، بل تعمل على التكامل بدل الصراع وعلى الاندماج بدل التنافر، فيكون ناظمها الغيب والإنسان والطبيعة دون طغيان أو استغناء.

□

قائمة المراجع:

حاج حمد .محمد أبو القاسم . (2004). الازمة الفكرية والحضارية . في الواقع العربي الراهن. بيروت لبنان: دار الهادي.

الصدر. السيد محمد .(2002) .*اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني* -.الجزء الرابع - بيروت :دار التعارف للمطبوعات.

العامري. سامي .(2021) .*العلموية الادلجة الالحادية للعلم في الميزان* .الكويت.-رواسخ.

المسيري.عبدالوهاب .(2003) .*الفلسفة المادية وتفكيك الانسان* .دمشق.دار الفكر.

حاج حمد.محمد ابو القاسم .(1996) .*العالمية الاسلامية الثانية .الجزء الاول* .بيروت .دار ابن حزم.

حاج حمد.محمد ابو القاسم .(2004) .*ابستمولوجيا المعرفة الكونية اسلامية المعرفة والمنهج* .بيروت لبنان .دار الهادي.

حاج حمد. محمد أبو القاسم .(1996) .*العالمية الاسلامية الثانية .الجزء الاول* .بيروت .دار ابن حزم.

حاج حمد.محمد ابو القاسم .(1996) .*العالمية الاسلامية الثانية-الجزء الاول -جدلية الغيب والانسان والطبيعة* .بيروت لبنان.دار ابن حزم.

عباس.فيصل) غير متوفرة .(*الفلسفة والانسان* .*جدلية العلاقة بين الانسان والحضارة* . بيروت.دار الفكر العربي.

غارودي. روجيه .(1993) .*حفار القبور، نداء جديد الى الاحياء*. ترجمة .رنيم .الهاشم . بيروت لبنان :منشورات عويدات.

كلشني. مهدي (2003). *من العلم العلماني الى العلم الديني*. بيروت لبنان.دار الهادي.